قراءة جديدة في معلقة لبيد بن ربيعة العامري

المدرس الدكتورة جنان محمد عبد الجليل

جامعة البصرة كلية الاداب قسم اللغة العربية

المقدمـــــــة :

لبيد بن ربيعة العامري من كبار شعراء عصر ماقبل الاسلام كان فارسا شجاعا، نشا والقبيلة بكل مقوماتها تجري في دمه اذ خبر الحياة واحس بقسوتها ومرارتها فعمل جهده على تخفيف آلامها تدفعه الى فعل ذلك سجايا كريمة ورثها عن ابيه (ربيعة المقترين)الذي عم سخاؤه جميع الفقراء، وعمه الفارس ابي براء بن مالك (ملاعب الاسنة) وعمه معاوية (معود الحكماء) الذي عرف بالعقل والحكمة.

وقد اخترت معلقة لبيد لانها اكثر قصائد التراث غنى اذ تعد مثالا للقصيد الجاهلية، فقد استوعب لبيد كل التراث الشعري القديم، وقدمه في تلك المعلقة التي اصبحت رمزا للقصيدة الجاهلية في ارقى مستوياتها بل اصبحت تمثل (قمة الحرفة الفنية)(١) في ذلك العصر.

وقد جاء البحث موزعا حسب انتظام الموضوعات في المعلقة، اذ كانت الوقفة الاولى مع عتبة القصيدة (المقدمة الطللية الظعنية) التي اثار فيها لبيد صورا متعددة ترمز الى امكانية استمرار الحياة وتجددها.

- ثم تاتي قصة (حمار الوحش) لتصور تلك المشاعر الخفية والمتبادلة بين الذكر والانثى، والسعي معا من اجل حياة آمنة.
- وتطول الوقفة مع البقرة الوحشية المفجوعة بأبنها والتي تخوض صراعا عنيفا من اجل الفوز بالحياة التي تضمن لها ابناء آخرين.
- ثم تاتي ذكرى (نوار) التي نأت وتقطعت الاسباب بينها وبين لبيد اذ يقف عندها لا ليستجدي حبآ بل ليشهدها على فتوته وشجاعته فهو لايقيم على قطع وهجران بل يرحل حيث يكون الوصل والعطاء مع القبيلة.
- اذ يدخل في حماها مدافعا عنها، مفتخرا بها، مبرزا مايتمتع به من كرم وفروسية وشجاعة.

تلك هي معلقة لبيد التي بلغت ثمانية وثمانين بيتا، ولاشك في ان شاعرا نظم هذه القصيدة الطويلة انما هو شاعر حاذق بصنعته الفنية الى حد بعيد.

المقدمة الطللية الظعنية:

تتالف هذه اللوحة من تسعة عشر بيتا وهي ذات تفاصيل كثيرة وعناصر متعددة، وقد اجتمعت اربعة عناصر في هذه "اللوحة الطللية المزخرفة"(٢):

١. صورة الكتابة.
٢. صورة الوشم المجدد التي نستشف منه فكرة البقاء.
٣. الامطار والسيول.
٤. الظباء والاطلاء التي انتشرت في الطلل، وهذان العنصران يبعثان الحياة من جديد.

ان صورة الكتابة على الحجارة "كما ضمن الوحي سلامها" تعطي معنى الماضي الذي لا يفنى بل يتحول الى رموز خالدة او الى رقية ضد الفناء، فالحياة لم تتبدد، لكنها استقرت في ذاكرة الشاعر او في الحجارة التي لاينالها الفناء.

كما ان السيول قد تحولت الى اقلام تجدد معالم كتابة الديار التي غطاها التراب، لتعيدها الى صفحة الوجود.

ان الكتابة المتجددة، وسيلة ضد النسيان الذي يخشاه لبيد، فضلا عن انها من خصائص الانسان وأثر من آثاره الشاخصة:

وجلا السيول على الطلول كأنهـا زبر تجد متونها أقلامهـــــــا

أو رجع واشمة أسف نؤورهـــا كففآ تعرض فوقهن وشامهـــــا(٣)

وكذلك الوشم الذي يعد فعلا انسانياً يشير الى ما لايمكن محوه او ازالة آثاره، والوشم يردد مرة بعد اخرى. اذن فالزمن والحياة تياران لايعرفان التوقف والانقطاع.
فالحياة يمكن ان تظل مستمرة، منتصرة،وفي هذا دعوة الى تغيير النظر الى الماضي او استمرار الحياة من حيث هي نشاط وفاعلية(٤).
لقد ادت الامطار الى امراع وخصب الديار فبدأت الحياة تدب في عروقها شيئا فشيئاً واجتذب هذا الخصب الظباء والنعام وبقر والوحش فبعث الحياة فيها من جديد، لقد تقهقرت الحضارة الانسانية امام القوى الطبيعية، لكن الشاعر يرسم صورة اخرى في مقابل هذه الصورة اذ نجده يشبه النساء الظاعنات بالبقر والظباء وقد انسجمن
في عالم الطبيعة واندمجن هن وهوادجهن في اشجار ومنعطفات "وادي بيشة" واحجارها:

زجلا كان نعاج توضح فوقها وظباء وجرة عطفاً آرامها
حفزت وزايلها السراب كأنها اجزاع بيشة أثلها ورضامها(٥)

فبعد ان "تابد غولها فرجامها" سوف تبتعث حياة جديدة في مكان آخر.وعلى الرغم من تحرك دورة الزمان على هذه الديار"حجج خلون حلالها وحرامها"
وعوامل الفناء الطبيعية التي تحملها "رزقت مرابيع النجوم....."
الا أن طلل لبيد ظل شامخا يحمل في تضاعيفه الخلود والبقاء، وان عريت الارض من ساكنيها.

عريت وكان بها الجميع فأبكروا منها وغودر نؤيها وثمامها(٦)

لكن بقي رمزان لايمكن ليد الزمن محوهما وهما (النؤي)(٧) و(الثمام)(٨) الاول من خلق الانسان والثاني من خلق الطبيعة.
أن الانسان وآثره هو الثوب الجميل الذي يزين جسم الارض، فهي وان عريت من الحب والحياة والحضارة ولكن في الصورة المقابلة كانت تلك الستائر والكلل والقرام تزين الهوادج دالة على الانتقال الى حياة ومرحلة جديد لاعري فيها ولا متاعب ولا اخطار.
فالزمن في دورته الطبيعية يجرد الاشياء ويعريها "فمدافع الريان عري رسمها..." وفي الوقت نفسه يخلد الاشياء ويمنحها الديمومة "كما ضمن الوحي سلامها".
ومن ثم يمكن ان يكون الموقف عبارة عن ترجمة لاشعورية للرغبة في الخلاص من ظرف حضاري متهدم والتحول الى مرحلة حظارية ارقى(٩).
وقد ازدحمت هذه اللوحة بالافعال الماضية، التي تؤكد الحدث وترسخه في الذهن وتحقق الصور في نفس المتلقي لان هذا النوع من الافعال ذات دلالة نهائية في حدثيتها(١٠)، مثل "عفت، تأبد، ضمن، خلون، صابها، علا، أطفلت، جلا، وقفت، فأبكروا ...".
وفي المقابل نجد الافعال المضارعة الدالة على التجدد والاستمرار، باثة الحركة والحياة في كل ما هو منصرم مثل: "تأجل، تجد، يبين".
وتبتعد (نوار) مع الركب، وتبلى حبال المودة حتى كادت تنقطع، فيقطعها لبيد لانه لايقيم على هجر وقطيعة، فيختار الرحيل طاوياً الاودية والتلاع، حيث يكون الوصل والعطاء مع ناقة تنجيه من ربقة حبيبة صروم، لايمكن الانقياد لذكرها وحبها.

فاقطع لبانة من تعرض وصله ولشر واصل خلة صرامهـا
واحب المجامل بالجزيل وصرمه باق اذا ضلعت وزاغ قوامها(١١)

وبهذا كان الانفصام المكاني بين الشاعر والحبيبة سبباً الى الانفصام الشعوري.

قصة حمار الوحش:

تعكس قصة الحمار مع اتانه شهوة الاقبال على الحياة وتصور امتع مرحلة من مراحل الحياة، الا وهي الشباب وبداية العلاقات الزوجية، فالاتان في القصة حامل، ولعل هذا يعكس طموح الشاعر وحرصه على ان يتوج الحب بالزواج والانجاب، ونجد في البيت الاول مايدل على الخصب، وهو امتلاء ضرع الاتان باللبن:

او ملمع وسقت لأحقب لاحه طرد الفحول وضربها وكدامها(١٢)

لكن الحياة لم تكن بعيدة عن المتاعب فقد دافعته الفحول على هذه الاتان طرداً وضرباً وكداماً، الى ان استطاع الفوز بها، الا انه سرعان ما (رابه عصيانها) فظن بها الظنون، واحرقت الغيرة قلبه فساقها الى مرتفع الاكام، مبتعدا بها عن الفحول تلاحقه أشباح الخوف:

يعلو بها حدب الاكام مسجج قد رابه عصيانها ووحامها
بأحزة الثلبوت يربا فوقهـا قفر المراقب خوفها آرامها(١٣)

ان المشهد غني بالحدث والحركة السريعة التي يلمس من خلالها لبيد اعمق المشاعر الانسانية واخفاها، اذ رسم صورة دقيقة حية للزوج وقد تسللت الى نفسه الغيرة الجائرة، وخامره الخوف والشك والتوجس من تمنعها.
"ولبيد يفصل في وصف حال الحمار تفصيلا يطلعك على نوع مما يجري بقلبه من انفعالات الغيرة والحرص على انثاه ما لا مراء في ان عناصره مستمدة من احساسات صاحب الشعر نفسه وتجاربه..."(١٤).
وفي هذا ايحاء صريح بوجود المعادل الموضوعي، يقول اليوت: ان الطريقة الوحيدة للتعبير عن العاطفة

في قالب فني انما تكون بأيجاد معادل موضوعي لها وبعبارة اخرى مجموعة من الموضوعات او المواقف او سلسلة من الاحداث تشكل وعاء لهذه العاطفة الخاصة.
اذن فالشاعر يعكس انفعالات الانسان من خلال تصرفات الحيوان، فجاءت هذه المشاهد ثرية في رموزها ودلالاتها النفسية والموضوعية.
ان هذه القصة تصور نوعين من الصراع، جاء الصراع الاول محتدما مع الدوافع الغريزية والعاطفية، اما الثاني، فقد كان مع الطبيعة، اذ يمر الشتاء عليهما " حتى اذا سلخا جمادى ستة "وينعمان بربيعه الى ان ينغص عيشهما الصيف بسهامه وسمومه:

ورمى دوابرها السفا وتهيجت ريح المصايف سومها وسهامها(١٥)

يرسم لبيد صورة تكشف عن مدى اتقانه للتشبيه، اذ يأتي به في مكانه المحدد وبدقة متناهية حين شبه الغبار بالنار والدخان، رامزا الى الحرارة التي تستعر في جوفهما من الظمأ:

فتنازعا سبطا يطير ظلالـــه كدخان مشعلة يشب ضرامها
مشمولة غلثت بنابت عرفج كدخان نار ساطع اسنامهـــا(١٦)

يبدو ان الشاعر رمز بالشتاء الى الحال الاول حين كان الاضطراب، والغيرة، والتمرد، وبالربيع الى عودة الهدوء والصفاء بالصيف الى حالة السعي والجد الذي يتوج بالوصول الى الماء.
وعلى الرغم من شدة استئثار الحمار بأتانه وغيرته عليهما اذ كان (يعلو بها حدب الاكام) او هي مسيرة بغريزة الانثى:

فمضى وقدمها وكانت عادة منه اذا هي عردت اقدامهـــا(١٧)

الا انها كانت شريكة له في اتخاذ القرار:

رجعا بأمرهما الى ذي مرة حصد ونجح صريمة ابرامهـــا(١٨)

اذن فالحياة لايتم صفاؤها الا بالتعاون المثمر والحرص الجاد، اذ وصل الزوجان اخيرا الى الغدير الذي تنمو فيه النباتات المائية الخصبة فأخذا يخوضان فيه ينعمان بالامن والشبع بعد رحلة كلها اخطار ومتاعب وجوع.

قصة البقرة الوحشية:

ان الصراع في هذه القصة اعنف منه في القصة السالفة اذ تزخر هذه القصة بمشاعر الحزن،والندم،والحيرة، والتشبث بالحياة، والدفاع عنها، انها تصور عدوان الدهر على الحياة الامنة.
اذ يصور لبيد ببراعة تلك الام المفجوعة بابنها فراحت تبحث عنه بعد ان فرسته السباع مصورآ مشاعر الامومة، في هذه اللحظات المليئة بحب الام لابنها، وندمها من غفلتها عنه، والمها من هول الكارثة:

علهت تردد في نهاء صعائـد سبعآ تؤامآ كاملآ أيامهـــا(١٩)

لقد بلغ الشاعر الغاية في التصوير النفسي، اذا فجر مشاعر الامومة الحزينة وعبر عن حسرة الثكل بصورة انسانية عميقة، وفي وصف هادئ وبكلمات سلسة النعومة. ثم يدفع لبيد الاحداث الى نقطة التأزم، فيشمخ القدر امام حياة هذه الام الملهوفة الحائرة التي تبحث عن امومتها الضائعة في صورة صياد القى الرعب في قلبها، بعد ان ظهر لولدها في صورة وحش كاسر، ويحتدم الصراع داخل نفسها بين ان تهرب وتنسى ابنها، او تمضي في البحث وتجود بنفسها، بين مطلب الامومة ومطلب الحياة.
وهنا يسكن صوت الامومة، والحزن، ويعلو عليه صوت حب الحياة، فتلوذ بالفرار، ويبقى القدر يلاحقها فلا تجد بدآ من المواجهة فتكر على الكلاب مسددة طعنات الموت، لتكسب الحياة التي تضمن لها ابناء آخرين.
وعندئذ ينتصر حب الحياة على ارادة الموت:

لتذودهن وايقنت ان لـم تذد أن قد أحم من الحتوف حمامها(٢٠)

وتنتصر البقرة في صراعها مع نفسها، كما انتصرت في صراعها مع الرياح الباردة والمطر والظلام في: (ليلة كفر النجوم غمامها).
اذ التقى سواد الليل وسواد حالها، فأطبقا عليها معآ وظلت وحيدة تضيء الظلام كالدرة التي سقطت من خيطها:

وتضيء في وجه الظلام منيرة كجمانـــة البحـــري سل نظامهـــا(٢١)

ان هذه الصور اقرب المعادلات الفنية لتصوير قلق البقرة وادبار القطيع عنها، فعندما انقطعت عن الصوار باحثة عن ولدها، اضحت تحت تهديد الليل، والظلام، والخوف، والخطر، وعندئذ جف الخصب والحياة من ضرع البقرة بأنقطاع لبنها، وكذا الانسان العربي آنذاك اذ لاينبغي له التخلف عن الركب، والانفراد بالمسير، لان في ذلك من الخطر ما يهدد الحياة:

حتى اذا انحسر الظلام واسفرت بكرت تزل عن الثرى ازلامهـــا(٢٢)

يبدو ان البقرة ماهي الا رمز للألم، والطفل رمز لكل شيء يتطلب حرصآ وعناية ويقظة والا غدت الغفلة مرادفة لمعنى الانتهاء والفقد(٢٣).
لان سهام المنايا لاتخطئ ابدا، ومع هذا فالحياة لم تتوقف بموت (الفرير) وان النماء والخصب وان جفا من ضرع البقرة الا انهما سيعودان لان البقرة اختارت الحياة من اجل ان تهبها الحياة حياة اخرى وخصبآ آخر.

ان هذه الصورة التي اسبغها لبيد على ناقته لم تكن قط بعيدة من صور رغباته وحاجاته ومشاعره في الحرص ، والغيرة، والحب، والحزن، والندم... الخ.
اذا انه يتحدث عن رحلة الحياة في مسيرتها واحزانها، وفي كفاحها ومصيرها الذي تبعث به الاقدار وتحكمه المفارقات.
لقد جمع لبيد كل ما قيل في الناقة في قصتيه السابقتين من تفاصيل جزئية وملامح انسانية تحكي علاقة الانسان بالحياة كلها: الحب والغيرة والشك والريبة في قصة الحمار والتانة.
والخوف والفزع والهرب والدفاع عن هبة الحياة والصراع في سبيل البقاء والقدر المنتظر في كل لحظة والمصير المجهول، في قصة البقرة.
ويبدو ان الحاح لبيد على الوصف المفصل لخصائص ناقته الجسدية والنفسية، يرجع الى حرصه في نقل كل انفعالاته، ومن ثم فهي ناقة قوية انتصرت ارادة الحياة فيها، وهي كفيلة بنقله من الاطلال، والذكرى، والماضي، الى مواطن القبيلة حيث الامان والاندماج في كيانها بعد ان قطع ذلك القفر الموحش، وهددتهالاخطار والمخاوف والمتاعب.
من الملاحظ على ناقة لبيد انها متعبة قد انهكها وأجهدها السفر:

بطليح اسفار تركن بقيـــــة منها فأحنق صلبها وسنامهـــا(٢٤)

وان لبيد قد شبهها اولآ بالسحابة الذي ذهب ماؤها:

فلها هباب في الزمام كأنهـــا صهباء راح مع الجنوب جهامها(٢٥)

ثم استعان بقصة الحمار مع اتانه لتكون المشبه به الثاني في احد عشر بيتآ واصفا عطاء الحمار مقابل تمرد الاتان اما الصورة الثالثة فقد استأثرت بستة عشر بيتآ وهي صورة البقرة المسبوعة التي كانت لها تجربة في العطاء والتحدي.
وهكذا برزت موهبة لبيد في تفتيق جنبات الصورة الكلية عبر نوع من التوسيع في (المشبه به).
كما ان هذه الصور تلتقي عند بعض الملامح وتنفرد كل منها بما يتمم الرؤية الكلية التي يريد الشاعر ان يدعمها، فكل من الناقة والسحابة والحمار الوحشي واتانه والبقرة الوحشية تلتقي عند كونها صاحبة تجربة في العطاء تجعل المتوقع المرتقب من قبلها جديرآ بالاعتبار(٢٦).
وكذلك الشاعر يجب ان يتجاوز حالة الضعف و(يقطع لبانة من تعرض وصله) ليكمل مسيرة الحياة ويندمج بالآخر (القبيلة).
وبهذا تتخلص الذات من عوامل الضعف وتسمو بفعاليتها الاجتماعية وتضع نفسها في اطار القبيلة.

قصة الحبيبة نوار:

وبعد هذه الرحلة الشاقة مع ناقة لبيد والتي استغرقت واحدآ و ثلاثين بيتآ، يعود مرة اخرى الى حبيبته تلك التي وقف عندها في اول القصيدة.
اذ أن قصة حبه لنوار بدأت قبل قصة الحمار والبقرة ولن تنتهي الا بانتهاء القصيدة:

فبتلك اذ رقص اللوامع بالضحى واجتاب اردية السراب اكامها
اقضى اللبانة لا افراط ريبـــــة او ان يلوم بحاجة لوامهـــــا(٢٧)

نحن امام حبيب صارم مكابر، يرفض الاستسلام، ولئن كان لبيد قد انتصر بأنتصار ناقته في قصتيه السابقتين الا اننا الان نرى فارسآ عنيد البأ س، صارم الرجولة، يرفض الهزيمة.
ومع ان د.طه حسين قد رأى ان صناعة لبيد الاولى هي الفخر وقد قدمه على الخنساء في الرثاء(٢٨).
الا انه لا يعني هذا ان قلبه لم يخفق حباً(٢٩). بل باستطاعتنا القول، ان معلقة لبيد، معلقة حب كبير حب الحياة، بحيويتها وخصبها، وكانت الحبيبة هي الجزء الاصيل من هذه الحياة، وان كانت لاتراعي عهد ولا وفاء، لكنه انتصر عليها بحزمه وعزمه وانتهى الى النتيجة المختومة وهي اليأس المريح والتعزي عن الحزن بالارتحال.
لكن هاجرة الحب لايخمدها برد التعزي فما لبث ان تسلل الحب خفية الى نفسه:

او لم تكن تدري نوار بأنني وصال عقد حبائل جذامهـــــا
تراك امكنة اذا لم ارضهـــا اويعتلق بعض النفوس حمامها(٣٠)

عندئذ يتوجه اليها بحديث صريح ضارباً عن حبها بشجاعة عارضآ عليها بكبرياء فتوته في السلم والحرب واصلا مجده بأمجاد قومه في نيف وثلاثين بيتآ الى ان يقول:

فأقنع بما قسم المليك فأنمـا قسم الخلائق بيننا علامهـــــا(٣١)

مما يوحي بمنتهى القناعة والرضى والاستسلام فليقنع بحظه من "نوار" كما قنع سواه بحظه من الدنيا.

مقطع الفخر:

او لم تكن تدري نوار بانني وصال عقد حبائل جذامهـــــا(٣٢)

يبدو ان (نوار) ماهي الا رمز المرأة، فيتوجه اليها الشاعر بالسؤال لكي يبدأ بالتأسيس لاستجلاء الذات والرفع من شأنها، فهي المنفذ الفني للفخر الذاتي.

ونستشف من صورة وصل الاسباب (وصال عقد) ما يدل على اندماجه ودخوله في مجتمع القبيلة، لانه من دونها يصبح: (كجمانة البحر سل نظامها).

ان توتر العلاقة بين الشاعر والحبيبة وانصرامها ليس مكوناً معزولا، بل هو جزء من علاقة ثلاثية الاطراف، تتمثل في المثلث:- الشاعر،والقبيلة،والمرأة.

فحين تكون العلاقة بين الشاعر والمرأة متوترة او منصرمة فان العلاقة بين الشاعر والقبيلة تكون علاقة توحد(٣٣).

فها هو ذا يفتتح مقطع الفخر بوصف الخمر، واندماجه مع اصحابه في مجلسها، اذ اشترى الخابية بكاملها، لكي يقرر لبيد كرمه وغناه ويؤكد من خلالها مثالية الشاب العربي الجاهلي الشريف، لأن العرب في الجاهلية "يرون في احتسائها علامة السيادة واليسار والشباب"(٣٤). قائلا:

بل انت لاترين كم من ليلـــــة طلق لذيذ لهوها وندامهـــــا

قد بت سامرها وغاية تاجـــر وافيت اذ رفعت وعز مدامهـا(٣٥)

وتبرز صورة الخمرة بلونها الادكن وخابيتها السوداء يشربونها مع صوت العود الذي تعزف عليه المرأة الجميلة تحسن الضرب بأبهامها.

ثم يتحول لبيد الى وصف الحرب فهو فارسها حين يشفق القوم منها:

ولقد حميت الحي تحمل شكتي فرط وشاحي اذ غدوت لجامهـا(٣٦)

ولا تخلو الصورة من النوازع النفسية، فهو متهيئ ابدآ ذو يقظة وحذر، قريب جدا من فرسه التي تجود بحبها له، وهو أيضا يتوشح لجامها.

ان الفرس مطيته المثلى في الوفاء بواجباته نحو المجتمع فضلا عن انه يمثل طاقة طبيعية مقيدة لخدمة الانسان وقد احسن اذ شبهه بالنخلة لانها رمز للخصب والعطاء والنماء:

اسلهت وانتصبت كجذع منيفة جرداء يحصر دونها جرامهـــا(٣٧)

واذا حل موقف الخصومة والمفاخرة، يشمخ لبيد ليفحم خصمه بالبراهين القاطعة والحجج الصارمة:

وكثيرة غرباؤها مجهولـــة ترجى نوافلها ويخشى ذامهـــا

انكرت باطلها وبؤت بحقـها عندي ولم يفخر علي كرامهـــا(٣٨)

ان للبيد منزلة في قومه خولته التكلم بأسمهم والدفاع عن حقوقهم في حضرة الملوك.

وله باع طويل في الكرم والضيافة والجوار، لذلك فهو يلون هذه الخصلة بألوانه الخاصة قائلا:

وجزور ايسار دعوت لحتفها بمغالق متشابه اجسامهـــــــا(٣٩)

فالميسر مؤسسة اجتماعية لضمان توزيع اللحوم وقت الشدة، حين يقسو الشتاء ويضنك العيش، ويهدد الناس الجدب والاقفار، عندئذ يتكفل كرم لبيد بتوفير الشبع والخصب للضيف والجار، واليتامى والفقراء، فيذبح الناقة العاقر لانها اسمن او الناقة المطفل لانها انفس:

ادعو بهن لعاقر او مطفـل بذلت لجيران الجميع لحامهـــا

فالضيف والجار الجنيب كأنما هبطا تبالة مخصباً اهضامهـا(٤٠)

لقد نطقت اللوحة بأنسانية لبيد التي ورثها عن ابيه (ربيعة المقترين).

وتبرز في لوحات الفخر الذاتي ذلك التلاحم المطلق بين الفرد والقبيلة في اطار من التوازن بين دوريهما فلا ينحل الفرد في القبيلة ولا ينتصب شامخا على حساب هويتها، بل يعزز وجودها ويدعم قيمها مما يمنحها الاستمرارية والحيوية، ويصبح لحمة في نسيجها وركيزة اساسية في بنائها.

كما يتسم هذا القسم من القصيدة بالاسلوب التقريري المطمئن، اذ ليس هناك انفعال اوتحدي كالذي يسم فخر عمرو بن كلثوم في المعلقة، بل ان لبيد يتحدث بأسلوب من يقرر الحقائق فما اوتي الشاعر وقومه من سيادة ومكانة لايحتاج الى برهان، فتلك (قسمة المليك) او (سنة): وهي التقاليد الموروثة في كسب المعالي من الاباء والاجداد:

من معشر سنت لهم اباؤهم ولكل قوم سنة وامامهـــــــا(٤١)

وهكذا كانت كل تلك الخصال السابقة انما هي خصال قومه وشعارهم، فضلا عن المجد والسلطان والقوة والبأس، اذ لم يستقطب لبيد البطولة حول شخصه فقط:

واذا الامانة قسمت في معشـر اوفى بأوفر حظنا قسامهـــــا

فبنى لنا بيتآ رفيعآ سمكـــــه فسمى اليه كهلها وغلامهـــــا(٤٢)

وقد توحدت الحياة الفردية بالجماعية، وبرزت البطولة الفردية في خدمة القبيلة:

وهم السعاة اذا العشيرة افضعت وهم فوارسها وهم حكامهـــــا(٤٣)

فأستطاعت القبيلة ان تنعم بربيع دائم امتد كرمه الى القبائل الاخرى:

وهم ربيع للمجاور فيهـــــم والمرملات اذا تطاول عامهـــــا(٤٤)

وفي هذه الابيات الختامية نجد تكرار الضمير (هم) فقد كان قوم لبيد وقبيلته المحور المحرك لهذا الفخر ذلك بما يحملونه من معاني التفرد والخصوصية.
ان هذا المقطع يجسد من الروح العام والعناصر المشتركة في رؤية هذا الشاعر المخضرم اكثر مما تقدم من الشأن الخاص بل حتى التجربة الذاتية فيها تجسد-انطلاقآ من الصدق والوعي- ماهو عام ومشترك خير تجسيد.
وهكذا يمسك لبيد بزمام حركة الوجود ومسيرة الاحياء رافعا من شأن الذات التي تمنح الوجود معناه، ومزكيآ الثوابت الموروثة من السلف مفتخرآ لامبالغآ ولا متحديآ ومبلورآ حق الذات الذي لايعلو على حق الاخر.

الخاتمة:

بعد هذه الرحلة الممتعة مع معلقات لبيد نستطيع ان نقف عند بعض الومضات المضيئة التي، يمكن تلخيصها بالآتي:

١. لم يبتعد لبيد كثيرا عن مناهج الشعراء في مقدمته الطللية الظعنية الا انه استطاع بموهبته الفنية ان يختار من الصور ما يراه مناسبا مع فكرة طالما الحت عليه في المعلقة وهي: الحياة تيار لايعرف التوقف، فهي مستمرة، وعلى الانسان العمل على تجديدها، رغم عوامل الفناء والاندثار.
٢. ان حب الحياة هو الخيط الذي يمسك بموضوعات المعلقة، لذا يختار لبيد قصة الحمار مع اتانه الحامل ليعكس من خلالها ذلك النماء، وتلك الحياة الجميلة بين الذكر والانثى، على الرغم من منغصاتها ومتاعبها، وقد احسن لبيد صنعا اذ وقف بالقصة عند ورودها الماء، دون ذكر مشهد الصياد.
٣. ومع ان مشاعر الحزن والندم والخوف والحيرة كان مدار قصة البقرة المسبوعة، الا انها هي الاخرى تفوز بالحياة التي صارعت من اجلها الطبيعة والكلاب ،وان النماء والخصب وان جفا من ضرع البقرة بموت (فريرها) الا انهما سيعودان لان البقرة اختارت الحياة من اجل ان تهبها الحياة حياة اخرى وخصبآ آخر.
٤. ان الحبيبة كانت تطل بين الحين والاخر، فمع الظعائن نأت وتقطعت اسبابها، وبعد الرحلة الشاقة يقف لبيد امامها مكابرا رافضا الاستسلام، فهو دائما الفارس المنتصر، لذا يجعلها شاهدا على فتوته في السلم وشجاعتة في الحرب، واصلا مجده بأمجاد قبيلته، من خلال لوحة الفخر التي تظهر فيها سجايا لبيد التي ورثها من قومه، فما هو الا لحمه في نسيجها وركيزة في بنائها الصلب المتماسك.

الهوامش:

١) ينظر الشعر الجاهلي، مراحله واتجاهاته الفنية، السيد حنفي حسنين، ٢٥٠. كما يسميها د. كمال ابو ديب (القصيدة المفتاح) ينظر الرؤى المقنعة، ص٥١.
٢) شعر اوس بن حجر ورواته الجاهليين، د. محمود عبد الله الجادر، ٢٧٦.
٣) الديوان ٢٩٩.
٤) قراءة ثانية لشعرنا القديم، مصطفى ناصف، ٥٩.
٥) الديوان ٣٠٠، ٣٠١.
٦) نفسه ٣٠٠
٧) النؤي: مجرى يحفر حول الخباء لينصب اليه الماء.
٨) الثمام: نوع من الشجر يسد به خلل البيوت.
٩) ينظر مقالات في الشعر الجاهلي، يوسف اليوسف ١٩.
١٠) ينظر جدلية الخفاء والتجلي، كمال ابو ديب ١٩٩.
١١) الديوان ٣٠٣.
١٢) نفسه ٣٠٤.
١٣) نفسه ٣٠٥.
١٤) تاريخ الشعر العربي حتى اخر القرن الثالث الهجري، نجيب البهبيتي ٦٩.
١٥) الديوان ٣٠٦.
١٦) نفسه.
١٧) نفسه، ٣٠٦.
١٨) نفسه، ٣٠٥.
١٩) نفسه، ٣١٠.
٢٠) نفسه، ٣١٢.
٢١) نفسه، ٣٠٩.
٢٢) نفسه، ٣١٠.

٢٣)شرح المعلقات العشر، مفيد قميحة، ٢١٤.
٢٤)الديوان، ٣٠٣.
٢٥)نفسه، ٣٠٤.
٢٦)المعلقات العشر، دراسة في التشكيل والتأويل، ٦٩.
٢٧)الديوان، ٣١٢-٣١٣.
٢٨)حديث الاربعاء، ٥٠، ٥٧.
٢٩)لا اجد مسوغآ لما ذهب اليه د. يحيى الجبوري من ان لبيد لم يفرغ المرأة لانه عرف بالمهابة والوقار، ينظر: لبيد بن ربيعة العامري ص٢٤٨.
٣٠)الديوان، ٣١٣.
٣١)نفسه، ٣٢٠.
٣٢)نفسه، ٣١٣.
٣٣)ينظر البنى المولدة في الشعر الجاهلي، د. كمال ابو ديب، ٦٥، ٦٦.
٣٤)معلقات العرب، بدوي طبانة، ٢٧١.
٣٥)الديوان، ٣١٤.
٣٦)نفسه، ٣١٥.
٣٧)نفسه، ٣١٦.
٣٨)نفسه، ٣١٧.
٣٩)نفسه، ٣١٨.
٤٠)نفسه.
٤١)نفسه، ٣٢٠.
٤٢)نفسه، ٣٢١.
٤٣)نفسه.
٤٤)نفسه.

المصادر:

- البنى المولدة في الشعر الجاهلي، كمال ابو ديب، الموسوعة الصغيرة، الطبعة الاولى ١٩٨٨.
- تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجري، نجيب محمد البهبيتي، دار الكتب المصرية، ١٩٥٠.
- جدلية الخفاء والتجلي، د. كمال ابو ديب، الطبعة الاولى، دار العلم، بيروت، ١٩٧٩.
- حديث الاربعاء، د. طه حسين، الطبعة الثانية عشر، دار المعارف، مصر، ١٩٢٥.
- الرؤى المقنعة (نحو منهج بنيوي في دراسة الشعر الجاهلي): البنية والرؤيا، كمال ابو ديب، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٨٦.
- شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامري، حققه د. احسان عباس، الكويت، ١٩٦٢.
- شرح المعلقات العشر، د. مفيد قميحة، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ٢٠٠١.
- شعر اوس بن حجر ورواته الجاهليين، د. محمود عبد الله الجادر، مطبعة دار الرسالة، بغداد، ١٩٧٩.
- الشعر الجاهلي، مراحله واتجاهاته الفنية، د. السيد حنفي حسنين، المطبعة الثقافية، القاهرة، ١٩٧١.
- قراءة ثانية لشعرنا القديم، د. مصطفى ناصف، منشورات كلية الاداب الجامعة الليبية، دار الاندلس، بيروت، ١٩٨١.
- لبيد بن ربيعة العامري، د. يحيى الجبوري، مطابع التعاونية اللبنانية، بيروت، ١٩٧٠.
- معلقات العرب، بدوي طبانة، الطبعة الثانية، المطبعة الفنية الحديثة، ١٩٦٧.
- المعلقات العشر، دراسة في التشكيل والتأويل، د. صلاح رزق، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٩.
- مقالات في الشعر الجاهلي، يوسف اليوسف، الطبعة الرابعة، دار الحقائق، بيروت، ١٩٨٥.

الملخص:

تعد معلقة لبيد مثالا للقصيدة الجاهلية اذا استوعبت كل التراث الشعري القديم، وقد جاءت موزعة حسب انتظام موضوعاتها الى:

١- المقدمة الطللية والتي ركز فيها لبيد على امكانية استمرار الحياة وتجددها، ثم استخدم لبيد الاقنعة الفنية ببراعة ودقة.

٢- فجاءت قصة حمار الوحش لتصور المشاعر المتبادلة بين الزوجين والسعي معآ من اجل حياة آمنة.

٣- ثم قصة البقرة الوحشية التي تخوض صراعآ من اجل الفوز بالحياة.

٤- اما الحبيبة (نوار) فقد كانت منفذا فنياً للفخر وشاهداً على شجاعة لبيد.

٥- وللشاعر وقفة مع (القبيلة) اذ يدخل في حماها مفتخرا بأمجادها واجدادها.

تلك هي معلقة لبيد التي بلغت ثمانية وثمانين بيتآ ولاشك في ان شاعرآ نظم هذه القصيدة الطويلة انما هو شاعر ماهر، بحيث اصبحت معلقته تمثل قمة الحرفة الفنية.

Abstract:

Labied poem like un example for pre_Islamic poetry because it contain all ancint poemtry heritage, and it came as regularity as it subjectes to:

1.Remains introdaction that Labeid focus in it on probability to continue the life and renew it, then he used the art masks with

skillfulness and strictness.

2.The Zebra story came to picturize the exchange felling between the couple effort for asafe life.

3.then the story of the wild caw that going in to abattle for winnig life.

4.the lover (Nawar) she was an art vent for prowed and witness on Labied's courage.

5.for the poet stop with (the tribe) he intered in it refuge prowded of it

remarkable and their grandfather.

That was Labied's poem that reached eaigty eaigt verses and there is no doubt that the poem who made this long poem is aprofashenal poet.

Related Articles
http://thiqaruni.org/arab4/56.pdf
http://thiqaruni.org/arab4/57.pdf
http://thiqaruni.org/arab3/66.pdf
http://thiqaruni.org/arabic/74.pdf